

## مقتطفات:

إرهاصات الطب النفسي الإيقاع الحيوي التطوري،

منذ نصف قرن 1968 :

من كتاب "مخاضنا يتعري الإنسان"

من حكاية "فى القفص (2)"

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD210517.pdf>

بروفيسور يحيى الرخاوي

[mokattampsy2002@hotmail.com](mailto:mokattampsy2002@hotmail.com) - [rakhawy@rakhawy.org](mailto:rakhawy@rakhawy.org)

نشرة "الإنسان والتطور" 2017/05/21

السنة العاشرة - العدد: 3550



### مقدمة:

عرضنا أمس مقتطف مبدئي من هذه الحكاية، انتهى بكشف موقف المتهم الذى يفضل أن يدخل السجن الرسمى وراء القضبان هرباً من السجن الاغترابى خارجه رافضاً سجنه وراء لافتة الجنون حتى لو كان هذا الأخير سوف يعفيه من مسئولية ما ارتكب.

ونكمل اليوم

**المقتطف (من فصل: "فى القفص")**

**(المتهم يواصل حوارهِ مع (هجومه على) الطبيب:**

.....

**المريض:**

- هل تريد أن تسمع أكثر

**الطبيب:**

= أحب أن أسمع كل ما تريد أن تقوله.

- ولكنى لا أعرف ما أريد أن أقوله، هل تعرف أنت؟ ربما أخطأ هذا المحامى الأبله العنوان، وكان ينبغي عليه أن يحولنى إلى ضاربة للودع أو قارئة للكف، لماذا لا تستعين بهؤلاء الزملاء يادكتور، لماذا لا تخصص هذه الحجرة المجاورة لهؤلاء المختصين الأذكى ربما أفادونى أكثر وأرشدونى إلى ما أريد، ربما كان ذلك أجدى من جلوسك هكذا بالساعات تحاول أن تفهم ما لا تعرف، لأنه إذا كنت أنا نفسى لا أعرف، فمن أين لك أن تعرف أنت.

= نعرف سوياً.

- ولماذا تعرف أنت؟ إن ما أريد أن أعرفه غير ما تريد أن تعرفه أنت، أنت تريد أن تعرف إن كنتُ مجنوناً أم عاقلاً، إن كنت مسئولاً أم معتوهاً، أما أنا فأريد أن أعرف أشياء أخرى، أريد أن أعرف من أنا؟.. كيف أنا؟ لماذا أنا؟.. كم أنا؟.. أريد أن أعرف نفسى بكل أبعادها، فكيف نعرف "سويا" أشياء مختلفة أشد الاختلاف.

= ولكننا نلتقى بشكل ما، فكل ما يهمك يهمنى.

- أنا؟.. بهمنى؟... أنا لا يهمنى شيء البتة، أى شيء يمكن أن بهمنى؟... أنا لا أريد شيئاً ولا أستطيع شيئاً، أنا لست أى شيء حتى بهمنى أو لا بهمنى، حتى تهتم لابد أن "تكون" وأنا لا شيء، ماذا عندك، هل عندك جديد.

- ربما وجدنا شيئاً.

أريد أن أعرف من أنا؟..  
كيفية أنا؟ لماذا أنا؟.. كم  
أنا؟.. أريد أن أعرف نفسى  
بكل أبعادها، فكيفية نعرف  
"سويا" أشياء مختلفة أشد  
الاختلاف

أنا لا أريد شيئاً ولا أستطيع  
شيئاً، أنا لست أى شيء حتى  
بهمنى أو لا بهمنى، حتى تهتم  
لابد أن "تكون" وأنا لا شيء

إن تجسيد الأمور فى صورة  
حقيقية ملموسة أسهل على  
النفس وأقرب إلى الواقع...  
يعنى أقرب إلى الصحة.

إن تفسير العواجز الاجتماعية  
أسهل من أن تكسر ذاتك  
وأنت تحاول إثباتها..؟

- أى شيء تتصورونه أنت أو المحامى أو غيركما، هل قضبان القفص عندك من ذهب بدلا من الحديد الصدى، هل مستشفى الأمراض العقلية أرحم من سجن مصر؟ أنا خبرت كل الطرق ولم يعد هناك شيء أنتظره، لأنه لم يكن هناك أحد ينتظرنى.. أبدأ، لماذا تحاول استدراجى وأنا لا أثق فيك، إن وسائل التفاهم بيننا مقطوعة من قبل أن أجبتيك، أنا أعيش فى سجن الحذر والتوجس ولهذا فضلت "سجن مصر".. إن تجسيد الأمور فى صورة حقيقية ملموسة أسهل على النفس وأقرب إلى الواقع... يعنى أقرب إلى الصحة، أليست الصحة فى نظركم هى احترام الواقع... إذن فأنا احترم الواقع... لقد عشت سجينا بكل معنى الكلمة، وقد قررت احترام الواقع؟ لهذا أنا دبّرت أمورى حتى أدخل السجن الحقيقى حيث أستطيع أن أمسك بالقضبان بين يديّ بدلا من أن أتحدث عن قضبان وهمية تنتهى بى إلى حضرتك يا سيادة الطبيب النفسى.. بل دعنى أقول لك الحقيقة: لقد هربت، لقد اخترت الطريق الآخر، اخترت أن أكون مجرماً هرباً منك، من أن أكون مجنوناً، أليس ذلك أسهل على النفس؟ إن تكسير الحواجز الاجتماعية أسهل من أن تكسر ذاتك وأنت تحاول إثباتها..! ولكن ما باليد حيلة... هربت إلى السجن لأقع فى قبضتك أخيراً. كان ينبغى أن أهدع وكيل النيابة أكثر، فحين قلت له أنا هارب "إلى" السجن، صحح قولى، حسب أنى أعنى الهرب "من" السجن، وحين أكدت له أنى لم أخطيء وأنى هارب "إلى" السجن فعلاً، لم يفهم أنى أعنى أن سجن مصر أرحم من السجن الكبير الذى نعيش فيه جميعاً، أرحم من القيد الذى كبلونى به صغيراً...، ونظر إلى المحامى - محامى الحكومة، - هى التى عينته لى - وبرغم ذلك راح يحاول الحصول لى على البراءة، ولكن الثمن غال، البراءة مقابل أن يلصق بى تهمة المرض، أيهما أفضل يادكتور أن تكون لصاً أم أن تكون مجنوناً.. ماذا تفضل أنت؟... لا ترد! وبعد ذلك تقول لى... لا بد أن أثق فيك. حتى تساعدنى، تساعدنى فى ماذا؟.. أثق بمن؟...ولماذا؟ هل تعرف ثمن الثقة يادكتور؟ هل تعرف ماذا يحدث حين تثق بأحد الناس ثم يخيب ظنك؟ ثم يتخلى عنك؟ هل تعرف أن الثقة هى أعلى ما فى الوجود؟ وأخطره فى ذات الوقت؟ ماذا عندك يدعونى للثقة بك.

= ربما لأنه ليس عندى شيء معين.. أو فكرة مسبقة.. أستحق ثقتك، ربما لأنه ليس معلقاً وراء رأسى ميزان العدالة، تستطيع أن تشعر أن الميزان بيدك أنت، وأن ما حدث هو نوع من اضطراب التوازن... ربما تكون المشكلة فى أن تجد أحدا... يسمع... حتى تعيد أنت وزن الأمور، تعيد رؤية الأشياء من زاوية أخرى، حتى بقصد تقويم ذاتك.

- ربما.. ربما.. كل شيء جائز... حتى ما فعلته أنا هكذا يجوز أن يكون صواباً، ربما، ما دامت هناك "ربما" فليس هناك حقيقة ثابتة، إذن لماذا لا تدعونى أدخل بنفسى حيثما أردت، حيثما وضعنى القانون... أو حيثما ينبغى أن يضعنى.. "ربما" يكون ذلك أفضل، لماذا يحاولون حرمانى من تحقيق أفكارى. "ربما" وجدت حماية فى الداخل أضمن وأوقع من حماية الخارج... ربما.

= ولكن هذا الذى تفعله لا يطمس عليك حقيقة أنك هارب، لقد اخترت الابتعاد عن العالم الخارجى والمسئولية وراء أسوار حقيقية... متصوراً أنك بذلك تتحدى العالم... وفى الحقيقة أنت تهرب منه.

- ربما كنت أهرب... بل إنى فعلاً أهرب، الناس "فى الخارج" صعب، حين تحتاجهم لا يعطونك، وحين يعطونك تكون قد استغيت عنهم ولا يعود لعطائهم معنى ولا فائدة، الناس "فى الخارج" صعب، ولذلك فقد قررت أن أدخل برجليّ إلى الداخل... داخل السجن، هل تعلم يا سيدى لماذا؟ برغم أنى لا أثق فيك ورغم أنك قد تعتبرنى مجنوناً وتحاول تبرئتنى بذلك إلا أنى ألاحظ أنك تحاول أن تفهم، هذه ميزة فى حد ذاتها: أن تحاول، لذلك سأقول لك.... ربما تفهم، ربما أجد فى النهاية من يفهم وحتى لو لم تفهم فإنى لا أهتم بك... ولماذا أهتم بك... إسمع... ولكن: هل تريدنى أن أقول فعلاً؟

(و حين هممت بالرد عليه... أكمل دون أن ينتظر ما كنت سأقوله)

= .....

حين أكدت له أنى لم أخطيء، وأنى هارب "إلى" السجن فعلاً، لم يفهم أنى أعنى أن سجن مصر أرحم من السجن الكبير الذى نعيش فيه جميعاً، أرحم من القيد الذى كبلونى به صغيراً

أيهما أفضل يادكتور أن تكون لصاً أم أن تكون مجنوناً.. ماذا تفضل أنت؟...

هل تعرفه ثمن الثقة يادكتور؟ هل تعرفه ماذا يحدث حين تثق بأحد الناس ثم يخيب ظنك؟ ثم يتخلى عنك؟ هل تعرفه أن الثقة هى أعلى ما فى الوجود؟ وأخطره فى ذات الوقت؟

ما أجمل أن تكون القضبان ملموسة... واقعاً محسوساً، بدلا من وهم الحرية فى الخارج

أليس الجنون فى تعريفكم بعد عن الواقع وعدم احترامه؟ أليس هو تحطيم الأسوار العادية هى دنياكم التقليدية؟... أليس هو تغيير كامل فى الشخصية؟

– ما أجمل أن تكون القضبان ملموسة... واقعاً محسوساً، بدلا من وهم الحرية في الخارج، هذا تصرف ربما تعتبرونه غريبا، ولكنه ليس جنونا على كل حال... فقد فشلت أن أجنّ: هذه مأساتي.

= مأساتك أنك لم تجنّ!؟

– نعم أليس الجنون في تعريفكم بعد عن الواقع وعدم احترامه؟ أليس هو تحطيم الأسوار العادية في دنياكم التقليدية؟... أليس هو تغيير كامل في الشخصية؟ لقد فشلت في كل هذا، فأنا مازلت أحترم الواقع بدليل أني لجأت إلى السرقة حتى أضع بحكم القانون في السجن بعد أن فشلت في الخروج عن الواقع بالجنون، بعد أن فشلت في تغيير شخصيتي تغييرا جذريا يسمح لكم بلصق تهمة الجنون بي، هل تعلم ما الذي جعلني أعدل عن قرار الجنون؟

= .....؟

– الشفقة.. وأسوار الألفاظ، لقد أبيت أن يشفق الناس عليّ، لقد أبيت – أو قل لم أستطع – أن أبدو ضعيفا أمام أحد، لم أرض أن أسجن وراء تشخيص من تشخيصاتكم التي لا معنى لها... الجنون الحقيقي هو الحرية الكاملة، ولا توجد حرية كاملة حتى وراء أسوار مستشفى الأمراض العقلية، لذلك فقد رفضت الشفقة والضعف ووشم التشخيص الذي سوف تلصقونه بي، وفضلت أن أكون مجرما بمحض إرادتي، فضلت تجسيم الواقع بالعيش وراء أسوار السجن على تزييف الحرية بتعطيم أسوار الواقع بالجنون، اكتشفت ببعد نظري أن تشخيصاتكم ومستشفى الأمراض العقلية واقع أمر من واقع الحياة التي رفضتها، هل تذكر أني قلت لك في أول الحديث لقد اخترت أن أكون مجرما هربا منك... هرباً من أن أكون مجنونا؟ في الحقيقة أنا لم أهرب من الجنون ذاته ولكني لم أستطع أن أقبل الضعف ولا الشفقة، ولا الصورة التي ترسمونها في أذهانكم للجنون، وجدت أن الجنون ذاته له أسوار، وأن مأساتي ستقلب إلى أفاظ لاتينية تتشدد بها أنت وزملائك، فرفضت كل ذلك، رفضت أن أصبح سجينك أنت بعد أن عشت سجين الناس والمجتمع، لذلك فأنا أنصحك لوجه الله أن توفر جهدك، فأنت تحاول أن تثبت ما لم أستطع أن أحققه، تحاول أن تثبت أني غير مسئول، وأنا أحكى لك مسئوليتي كاملة، مسئوليتي عن الجريمة، عن الحياة، بل عن فشلي في أن أجنّ لأصبح كما يزعمون.

= أنا لا أحاول شيئا الآن... لا بد أن تدرك أني أحاول مساعدتك ليس إلا، أحاول أن ناقش اختيارك

الجديد، هل سيفي بغرضك أم لا؟ وأنا أطرح سؤالاً عليك: هل اختيارك هذا حل لمشكلة وجودك؟

– اختياري؟ وجودي؟ هل أنا اخترت اصلا؟، وهل يمكن أن أختار؟ يبدو ذلك ممكنا في الظاهر، ولكن عندك حق... أين وضعني اختياري هذا؟ هل السجن الحديدي أفضل من السجن النفسي؟ لم أعد أدري، هذه هي مشكلتي فعلا، أريد أن أختار "أنا" بنفسى، وهذا ما لم أحققه أبدا رغم أني قضيت حياتي كلها أصارع من أجله.

وبعد

غداً آخر مقتطف من نفس الحكاية

أما الحكاية كلها فيمكن الرجوع إليها في العمل الذي عمره خمسون عاما.

الجنون الحقيقي هو الحرية الكاملة، ولا توجد حرية كاملة حتى وراء أسوار مستشفى الأمراض العقلية، لذلك فقد رفضت الشفقة والضعف ووشم التشخيص الذي سوف تلصقونه بي، وفضلت أن أكون مجرما بمحض إرادتي، فضلت تجسيم الواقع بالعيش وراء أسوار السجن على تزييف الحرية بتعطيم أسوار الواقع بالجنون

هل تذكر أني قلت لك في أول الحديث لقد اخترت أن أكون مجرما هربا منك... هرباً من أن أكون مجنونا؟

هل السجن الحديدي أفضل من السجن النفسي؟ لم أعد أدري، هذه هي مشكلتي فعلا، أريد أن أختار "أنا" بنفسى، وهذا ما لم أحققه أبدا رغم أني قضيت حياتي كلها أصارع من أجله



شبكة علوم النفس العربية

نحو لياقة نفسانية أفضل

مؤسسة العلوم النفسية العربية  
معاً... نذهب أبعد

مركز باصاير الأبحاث والدراسات النفسية  
وفي أنفسكم آفة تبرزون